الدرس (٠١١) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلا نزال مع باب التوبة من كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

في آخر ما ساقه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الباب من أحاديث عن رسول الله ﷺ.

قال المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

٢٢- (وَعن أبي نُجَيد -بضَمِّ النُّونِ وفتحِ الجيم- عِمْرَانَ بنِ الحُصَيْنِ الخُزَاعِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ رسولَ الله ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَى، فقالتْ: يَا رسولَ الله، أَصَبْتُ حَدّاً فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبيُّ الله ﷺ وَليَّها، فقالَ: «**أحسِن إليها، فإذَا وضعتْ فائتِني**»، فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نبيُّ الله ﷺ، فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا. فقالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُول الله وَقَدْ زَنَتْ؟! قَالَ: «**لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ أَفضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بنفْسِها لله** عَزَّوَجَلَّ؟!» رواه مسلم).

هذا الحديث العظيم فيه بيان أن الزنا يعد في شريعة الإسلام جريمة عظيمة، وفعلة شنعاء قبيحة! ويترتب عليه من المفاسد والأضرار الشيء الكثير.

وإذا كان الزنا من امرأة ثيِّب قد أُحصِنت فإنه أشد، ولهذا كانت عقوبته في شرع الله للمرأة المحصنة أن ترجم، وهذا الرجم الذي يكون لمن كانت هذه حالها، يكون جزاءً من جنس العمل، لأن الزاني أو الزانية يتلذَّذ جميع بدنه بهذه المعصية، والذنب المحرَّم، فاستحق أن ينال العذابُ جميعَ بدنه.

وهذا الرجم الذي يكون للزاني المحصن، وكذلك الزانية المحصنة، المراد به أمران:

الأول: أنه جابرٌ ومطهِّر لمن وقع منه الزنا، فإذا أقيمت عليه العقوبة طهَّرته، ومحّصَته بإذن الله تعالى، وفي الوقت نفسه زاجراً للآخرين، حتى يعلموا أن هذا عقوبة هذا الفعل، فيكون في ذلك زجرٌ وردعٌ للآخرين.

وقصة هذه المرأة من جهينة قصة عجيبة! تابت إلى الله توبة صادقة، وتألمت من هذا الذنب، وأرادت أن تُطهِّر نفسها منه، فأتت النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقالت: (أَصَبْتُ حَدّاً فَأَقِمْهُ عَلَيَّ).

قولها: (أَصَبْتُ حَدّاً)، أي: أصبت ذنبًا أستحق به الحد، قولها: (فَأَقِمْهُ عَلَيَّ): أي طلبت من النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يقيم عليها الحد، فدعا النبي ﷺ وليها وقال: («**أحسِن إليهَا، فإذَا وضعتْ فائتِني بها**»)، أي: إذا وضعت هذا الحمل الذي تحمله، قال: («**فائتني بها**»).

(فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا [النبيُّ ﷺ])، أي: لمَّا أتى بها إليه، (فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا): وهذا فيه مراعاة سترها، وألا ينكشف شيءٌ من بدنها عندما ترجم.

(ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا [النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ])، فتعجب عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال: (تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُول الله وَقَدْ زَنَتْ؟!)، يقول ذلك متسائلًا متعجبًا!

فبين النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حال هذه المرأة، فقال ﷺ: («**لَقَد تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ**»)، أي: أن هذه التوبة العظيمة التي ملأت قلب هذه المرأة، وكانت صادقةً بها مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأرادت تطهير نفسها من هذا الجرم العظيم، والذنب الوخيم، قال: («**لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ**»)، أي: لو قسمت هذه التوبة بين سبعين شخصاً مذنب، لكفتهم هذه التوبة في تمحيصهم وقبول توبتهم.

وهذا نستفيد منه فائدة عظيمة: ألا وهي أن الناس يتفاوتون في التوبة، فليس قدر التوبة أو حجمها في الناس واحد، بل توبةٌ أقوى من توبة، فمن الناس من تكون توبته عظيمة قوية، مثل هذه المرأة، لو قسمت توبتها بين سبعين لوسعتهم، ومن الناس من تكون توبته دون ذلك بكثير.

وهذا الحديث فيه فضل التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأهميتها، وأهمية أن يكون العبد صادقًا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في توبته، وأن من تاب تاب الله عليه، فهو جَلَّ وَعَلَا يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، وهو الغفور الرحيم.

قال المصنف رحمه الله:

٢٣- (وعن ابنِ عباسٍ وأنس رضي الله عنهم أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**لَوْ أَنَّ لابنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يكُونَ لَهُ وَادِيانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»[1] مُتَّفَقٌ عليه).

هذا الحديث يفيد أن من طبيعة الإنسان أنه يحب المال، ويحب أن يستكثر من المال، وأن يزداد ماله، وكلما حصّل مالًا كثيرًا، تمنى لنفسه أن يزداد أضعافًا مضاعفة، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: («**لَوْ أَنَّ لابنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يكُونَ لَهُ وَادِيانِ**»)، والوادي من الذهب يعتبر قدراً كبيراً في حاجة الإنسان، ومع ذلك لا يقنعه ذلك، لو قُدِّر أن له واديًا ممتلئًا ذهبًا؛ لأحب أن يكون له وادٍ آخر، هذا أمرٌ في طبيعة الإنسان، إلا من يكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالقناعة فيما آتاه الله، والغنى حقيقة في القناعة لا في كثرة المال.. والغنى غنى النفس.

وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («**وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ**»)، أي: لا يزال الإنسان يطلب ويطلب، ولا يسده شيء، ولا يكفيه شيءٌ.

قال صلى الله عليه وسلم: («**وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»)، أي: من يكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويمن عليه بالتوبة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقبل توبته، وإنابته.

ويستفاد من ذلك: أن التوبة سببٌ للانكفاف عن المحرمات، وسببٌ أيضًا للرضا بما قسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعبده من رزق، وأن التوبة تمحوا السيئات بإذن الله جَلَّ وَعَلَا.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٢٤- (وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «**يَضْحَكُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ يقْتلُ أَحَدهُمَا الآخَرَ يَدْخُلانِ الجَنَّةَ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبيلِ اللهِ فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يتُوبُ اللهُ عَلَى القَاتلِ فَيُسْلِم فَيُسْتَشْهَدُ**»، متفقٌ عليه).

وهذا الحديث العظيم فيه فضل الإسلام، وأن الإسلام يهدم ما كان قبله، وفضل التوبة، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها، ولهذا فالعبد يحتاج إلى أن يجدد التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الذنوب، ومما ارتكبه من الخطايا.

ومن فوائد هذا الحديث: أن العبد ينبغي عليه ألا يتعاظمه ذنبٌ، فالله عز وجل يتوب على العبد، وييسّر له أبواب التوبة مهما كانت حاله، وهذا الحديث جديرٌ أن يُتدبَّر في باب التوبة، فهذا رجلٌ كان كافرًا بالله، ومعاديًا للمسلمين، وقتل من المسلمين من قتل عدوانًا على الإسلام، واعتداءً على أهله، ومع ذلك فتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له باب التوبة وهداه، فأصبح هو ومن قتله في الجنة.

قال صلى الله عليه وسلم: («**يَضْحَكُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ يقْتلُ أَحَدهُمَا الآخَرَ يَدْخُلانِ الجَنَّةَ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبيلِ اللهِ**»)، أي: المسلم يقاتل الكفار، («**فيُقتَل**»): أي: يقتله أحد الكفار، ويكون قتله في سبيل الله وشهادة ويكون من أهل الجنة، ثم يكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذاك الذي قتله، ويتوب عليه، أي: يدخل في الإسلام، ثم أيضًا يدخل في معركة أخرى مع المسلمين فيُقاتل فيُقتَل على أيدي أحد الكفار، فيُستَشهد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيكون في الجنة مع ذاك الذي قتله.

وأيضًا يكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الجنة بألا يكون في قلوبهم غِل.. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، فلا يكون في قلبه غل عليه لأنه قتله، لأن من يدخل الجنة، ويكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بدخولها؛ ينزع من قلبه الغل، وهذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الحاصل: هذا الحديث حديث عظيم في مقام التوبة، وأن الإنسان مهما كانت ذنوبه لا يتعاظمها، بل عليه أن يقبل على الله، وأن يسأل الله أن يشرح صدره للتوبة، وأن يوفقه لتحقيقها.

ولهذا بعض أهل العلم أشار إلى أن النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ختم كتابه التوبة بهذا الحديث، تنبيهًا إلى أن المذنب مهما كان ذنبه لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، ولينظر في حال هذا الرجل الذي كان مع أعداء هذا الدين، يقاتل ضد الإسلام وضد المسلمين، وقتل أحد المسلمين، ثم يمن الله عليه بالإسلام، ويقاتل في سبيل الله، ويُقتَل شهيداً في سبيل الله.

والذي يقرأ تاريخ الصحابة الكرام يجد أن عددًا منهم قبل الإسلام خاضوا بعض المعارك ضد المسلمين، ثم شرح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صدورهم للإسلام، بل بعضهم كانوا قادة، كخالد بن الوليد رضي الله عنه كان قائد جيش المشركين، ثم منَّ الله عليه بالإسلام وأصبح قائدًا لجيش المسلمين.

وانظر هذا التحول العجيب.. وهو من فضل الله عليه يتحول من قائد لجيش المشركين إلى قائد لجيش المسلمين، قبل سنوات كان قائدًا ضد الإسلام، وضد هذا الدين، ثم يتحوَّل إلى قائد لجيوش المسلمين لنصرة دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن القصص العجيبة في هذا الباب: قصة كُرْز بن جابر الفِهْري رضي الله عنه، وذلك في بداية الإسلام لمَّا كان النبي ﷺ في المدينة، أغار كُرْز –وكان وقتها لم يسلم– على الإبل والغنم التي للمسلمين واستاق منها شيئًا، فطلبه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأمر باللحاق به، لكنه فرَّ بها ولم يدركه النبي ﷺ ورجع.

ثم منَّ الله عليه بالإسلام، ولمَّا جاء العُرَنِيون –وقصتهم معروفة– وقد اجْتَوَاهم المرض، قال لهم النبي ﷺ: «**تجلسون عند إبل الصدقة، وتشربون من أبوالها وألبانها**»، فجلسوا حتى شفوا من المرض، فقتلوا الراعي وفروا بالإبل، فلمَّا بعث النبي ﷺ خيلًا من المسلمين لقتالهم ولردِّ ما أخذوه من إبل الصدقة، أمَّرَ عليهم كُرْز بن جابر رضي الله عنه.

وكُرْز بن جابر هذا سبق أن كان اقتاد أغنام المسلمين وفرَّ بها، وما أدركه النبي ﷺ، وأسلم ثم أصبح قائدًا يرسله النبي ﷺ في البعوث، فأدركهم كرز وأرجع الإبل التي أخذها العرنيون، وقُتِل رضي الله عنه في سبيل الله يوم فتح مكة.

فمثل هذه القصص تفيد أن الإنسان قد يكون معاديًا للإسلام، أو قد يكون صاحب جرائم كبار، أو صاحب معاصي وذنوب عظيمة، ويشرح الله صدره للإسلام، وتكون قوته التي في الجاهلية قوةً عظيمة في نصر دين الله، إذا وفَّقه الله للمنهج الصحيح والطريق المستقيم، فعلى العبد أن يقبل على الله، مهما كان ذنبه، ومهما كان جرمه.. عليه أن يقبل على الله وأن يتوب، لو كان كافرًا.. أو كان قاتلًا.. أو كان زانيًا.. أو كان سارقًا.. أيًّا كانت جريمته، عليه أن يتوب إلى الله وأن يصدق مع الله في التوبة، والله جَلَّوَعَلَا ييسر له من أبواب الخير، وأبواب التوفيق، وأبواب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة ما لا يحتسبه.

وكثير من الناس إذا فكر أن يتوب، أو أراد أن يتوب، أتاه الشيطان وأخذ يُعظِّم عليه ذنبه، ويقول له: أنت مثلك لا تقبل توبته، وأنت جرائمك كثيرة، وأنت.. وأنت، فيحول بينه وبين التوبة، فعلى الإنسان ألا يلتفت إلى مثل ذلك، وعليه أن يعلم أن الله توَّاب، وأنه يقبل التوبة من عباده، مهما عظمت ذنوبهم، ومهما كثرت جرائمهم.

والله تعالى يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].

والمراد: أنه يغفر جميع الذنوب مع التوبة إلى الله، ولا يقنط عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠]، وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ

وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥٓ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ [البروج:١٠].

قال الحسن البصري رحمه الله: انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!.

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

روى ابن جرير الطبري رحمه الله أن عليًا الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامة، فامتنع ولم يُقْدر عليه، حتى جاء تائبًا، وذلك أنه سمع رجلا يقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فوقف عليه فقال: يا عبد الله، أعد قراءتها. فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائبًا. حتى قدم المدينة من السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في غمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليّ جئت تائبًا من قبل أن تقدروا علي. فقال أبو هريرة رضي الله عنه: صدق. وأخذ بيده أبو هريرة حتى أتى مروان بن الحكم -وهو أمير على المدينة في زمن معاوية- فقال: هذا عليّ جاء تائبـًا، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل. قال: فتُرك من ذلك كله، وخرج عليّ تائبًا مجاهدًا في سبيل الله في البحر، فلقوا الروم، فقربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم فاقتحم على الروم في سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به وبهم، فغرقوا جميعًا.

والقصص في ذلك كثيرة، والحاصل أن الواجب على العبد أن يقبل على الله تائبـًا ولا ينظر إلى كثرة الذنوب التي وقع فيها، فإن الله عز وجل رحمته واسعة وهو تواب رحيم ويغفر الذنوب جميعـًا ويقبل توبة التائبين وإنابة المنيبين.

ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا للتوبة النصوح وأن يتقبل توبتنا وأن يغسل حوبتنا وأن يصلح لنا شأننا كله إنه سميع قريب مجيب. وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.